قصة قصيرة:

لا..!

فوزية الجار الله

اقطف نفسي من بين الجموع وانتحي في موضع تتدفق فيه ذا كرتي.. تنعتق من قيود الشمع وتراكمات الأغلفة وأعلم إني أستلذ تعبي وأخلو بهمي.

ترحل كل الأشياء وتبقى وحدتي.. تقترب.. تلتصق أحداقنا وكأنما نحن لا نفترق.. ونبتعد.. نوغل عبر المسافات. شرخ غائر يمتد بيننا فكأنما نحن لا نلتقي، لا نأتلف.. بسبابتي أضغط الزر الصغير.. يتصاعد اللحن.. أغرق في اجوائه ولا يغريني سواه وأراك حولي هنا.. فوق معصمي أنشودة وفي كفي إغفاءة وبين حاجبي فراشة محلقة وفي عيني يثنى حرف متأفق رقيق يحمل لون الوجع وإيقاع الثلج وصرير الخوف حين ينحشر بين رأسك ومنكبيك.. هذا النغم الرائع الجميل كل فاصلة منه تحمل لي إيماءة شفافة تنهمر كالحلم البنفسجي المضيء يهمي على أهدابي ويلتف حول عنقي.

وليلة تمطرني السنابل الخضر.. تأتيني في حلم.. يندلق الضوء في داخلي.. وجع يرقد معي يستكين تحت غطائي لكن حضورك يغتال كل ذرة وجع ويدحر الزحف الرمادي المؤلم.. يكتسح كل الأشواك وينتزع منابت الخوف.. ليلة تزورني السنابل الخضر في حلم تهزج أصابعي فرحاً وتشدو الأرض بنغمات فريدة تمتزج بأنفاسي.. مع كلماتي.. تأتي من أين لا أدري.. كم من الزمن يمتد حضورك.. لا أدري.. لكنك تأتي كالدفق المشع الذي يطوقني.. انزلق داخل كوكبك حيث لا صمت ولا تعب.. عذوبة تكتسح كل دفعة وكل آهة وكل التفاتة حائرة.. وتكون أنت.. لا شيء آخر.. فرح يغتال موجات القتامة اللزجة.

مجنونة أنا أزرع أصابعي في أشيائك وأملأ الهواء بخطوط متلاطمة تحدثني عنك.. واتخيلك استحلت نهراً تغتسل فيه همومي.. وأمرغ فيه جبيني.. وأتخيلك سماء مترامية وأنا غيمة تتيه فيك سحراً وألقاً..

ثم أكون طائراً أبيض يعشق الحرية الملونة.. يرفض كل اشكال القيود إلا أن يكون سياجاً رائعاً داخل عينيك..

وحين ينصهر الفيض بالفيض.. استعيد الكلمات.. كل حرف يمتشق لوناً وشكلاً وصورة.. كل حرف.. يشرئب.. ينقب قائماً على أطراف أصابعه.. يحدثني عن أشياء لا تتكرر حين تنحسر.. عن الجفاف حين يقتحم حقولك وأراضيك المخصبة.. عن قسوة الغضب فيك.. عن إشاحة جفنيك.. عن قيد يطوق معصميك.. عن إغماء سحيق يسقط فيه كل من حولك.. عن قهر أثقل عاتقك.. عن سواد يأبى إلا أن يعتقل خطواتك.

تنغرس الكلمات في أحداقي.. تعبر صمتي.. تشعّ كالقناديل.. تجلجل كالأجراس.. أفض أغلفتها.. هنا رمز

لتلك التي تشبه الريح في انتشارها والمستحيل في نأيها . . هي أنا . . هنا عتاب يشهر إصبعاً اتهامياً تجاهي . . وهنا غضب ثائر أنا من آثار كوامنه . . كل هذه الكلمات انفضّت عني أنا أم . . لا . .

لا . . واحدة تردع حيرتي . . لا . . هي أنا ولا سواي .

كيف يكون الانتظار حارقاً . . جافاً . . لاهباً . . أتحسس الجدران بيدي . . تصطدم يدي بالفراغ . . تنشطر الدقائق والثواني كالموجة تلد الأخرى بلا توقف . . هنا نهاية الانتظار . . مساحات ورقية بيضاء . . كلمات انتزعها من تجاويف الأزمنة ومواضع الانكفاء ثم تجتمع بترتيب العقول الأخرى سفراً من الأنغام . . شريحة من كلينا . . لا أحد يعلم بأن ثمة حديثاً صامتاً كامناً هنا . . يتصاعد كالأبخرة العطرية الدافئة . . تخرج من أغمار الضوء . . تتولد بين النقط والفواصل . . هذا كاف لاقناعي بأن حدوداً واحدة ترمي حصارها حولنا .

أفر كالمهرة . . أنزلق كالعاصفة . . أصعد درجات هوائية واقتحم أنفاقاً لا يراها سواي . كلما ذكروني بأنه ليس ثمة أنفاق وليس ثمة سلالم . . تصرخ لا . . داخلي . . ومرة أخرى أقطف نفسي من بين الجموع وأختلي بهمي . . ولتضرب الأجنحة المشردة موعداً مع الأمان! لو انك تدري كم قصاصة ضممتها بلهفة وخبأتها بين دفّتي كتبي المدرسية . . كم من التشكلات الصارخة انتزعتها ببراءة طفولية وألصقتها على جدران القلب . كانت يدي تشهد بأنك قادم لأن بها خطوطاً نثرت حدود تقاطيعك . . أغفو وأغفو وأنتظر . أختلس حواراً من هذا الخضم . . يمتزج الحلم بالمستحيل :

- أنت تزرع الخوف في عقلي . . تشدني إلى أسلاك شائكة من اللاوعي :

- تذكرني بأنك المهرة وأنك العاصفة تنثرين الضوء في ذاكرتي تنبشين الألق في كل أشيائي .

- أي تناقض . . خطان متطاولان يحتفظان بمسافة متساوية . . كل منهما يضرب في موضعه .

- ليس ذاك . . بل موضع للتلاحم . . التلاحم فقط .

كم كان الانتظار مقيتاً . . كم مرة احصيت خطواتك . . وانتفاضاتك الرمادية . . كم مرة تتبعت أنثيالاتك ، مرة للانبهار . . ومرة للغوص . . مرة للفرح . . ومرات أخرى للسقوط في مستنقع من السأم .

وحين أبحث لا أجد . . لكنني أرتطم . . فقط أرتطم . . ليال حالكة تسحقني . . أقلب الأوراق . . يضغط الليل على صدري بقسوة وأتمنى لو ينكشف عن فجر مضيء يأتيني بصورة . . حرف . . رمز صغير يدلني ويكشف الأستار لي .

كيف اشتبكت كل الخطوط وتداخلت المعاني؟! كيف اختلط واقعي بوهمي . . كيف اصطدم همي بهمي وألمي بفرحي . . كيف استحال الفرج إلى خنجر ألم والألم إلى اهزوجة فرح . . كنت هنا وكنت هناك . . لأني لم أقل ! !

أكان ينبغي أن أقول؟! أن أقدم تصاريح واضحة ناصعة عن امتداد الدرب وعن موضع الحذر . . عن النقش فوق الصخر والنقش فوق الجبين . . لو أنك تدري أن بعض الكلمات تعبر دون صوت وأن بعض الروائح تتدفق دون لون لكنها تختفي في تفاصيل خوفنا . . في مقاطع حواراتنا . . في اهتماماتنا الصغيرة المتناثرة .

أكان ينبغي أن أتحسس موضع قدمي الحافية في الرمضاء المتوحشة مغمضة العينين وأنا لا أدري إلى أي مدى تمتد مساحة الرمضاء هذه . وهل ثمة نهاية محتومة لها أن أدس رأسي في كهف مظلم أجهله يطبق على أنفاسي . . يخنقني ولا أدري هل ثمة خروج أم لا . . ! مجازفة خطيرة ثمنها الفقد الذي يغتال سنابل الفرح ويطمس معالم البقاء .

- لا . . للرحيل . . لا وحدها تعيد إليّ اتزان الذات واستقرار العقل . . آه كيف ترحل؟ كيف لا تحمل هذه الأرض خطوك . . كيف لا تحتويك هذه الشوارع . . كيف لا تظلك هذه الغيمات التي تظلني . . أكان ينبغي أن أقول . . كن خنجراً ينغرس في خاصرة الألم لتكون الاحتمالات الجميلة معك وبك لنهزج معاً . . نتحد كذرات الشعاع الواحد، نحلي أكداس الثلج لهيباً والانطفاء الرمادي اشتعالاً وحياة جديدة .

أما آن لهذه المخاوف أن ترتدع؟ . . أما آن لهذا النهر أن يتلألأ دفقاً وارتعاشاً؟ . . أما آن لهذا النور أن يدثرنا . . هذه الأجفان ما تفتحت على النور إلا وتذكر وما انسدلت إلا على صوت فريد صاعق كالذكرى .

أكداس الورق البيضاء والسوداء والملونة أمامي . . أغوص داخلها وتنتشر داخلي . . ألتهم الكلمات . . زوايا

الصفحات . . الأعمدة . . النقاط . . تنزلق عيناي بسرعة إلى الصفحة المحبوبة البغيضة . . الحمقاء الذكية . . وأخبارنا وأخبارهم . . ماذا فعلوا وما سيفعلون . . تتلبسهم الأقنعة كالآخرين .

إنه هو . . يتمتع بإجازة . . لم يقل . . كان لا بد له من استرخاء مريح . . تتوالي الكلمات كالمسامير . .

مع . . مع . .

تهوي الكلمات كسهم من نار في أعماق اللحظة والثانية تتحول إلى شهاب ثائر . . إلى مثقب يخترق عقلي . . مع من؟ ! ما كان معي ولا مع حزني ولا مع صمتي . . لم يكن معي حين استقرأت الخطوات ولا كان معي حين تجمدت نظراتي . . حين احتميت بذاتي من ذاتي . . حين ارتميت بنفسي في أعماق نفسي وحدها هي التي تريحني وتلجم حزني .

مع السيدة . . سيدة . . كلمة همجية ثائرة تتردد أصداؤها في غابة مهجورة . .

لا بد أنها دعابة . . عبارة هزلية . . ولكن كيف؟ ! . . ألا زلت تمارسين حلمك مرة أخرى ! !

لكنهم يقولونها هكذا . . قوية حادة كالمشرط . . امرأة مثلي . . قامة انثوية . . ربما تكون ممتدة ممشوقة أو قصيرة قليلاً . . سمينة . . لكنها لا توازيه . . إطلاقاً لا تماثله . . يؤكد إنها بأظافر مطلية وشعر مرجل معقوص إلى الخلف مليء بالدبابيس المعدنية أو ينسدل بشكل خصلات متماسكة أو ثائرة . . بعينين ضيقتين أو واسعتين . . براقتين أو شاحبتين . . بثوب رائع أو قبيح . . واسع فضفاض تتيه داخله أو ضيق يشتد بقسوة إلى حدود جسدها .

منذ متى كان وحتام يكون وأين كنت أنا بين هذا . . وذاك . . قبل أو بعد أو وسط الخضم . . نقطة حائرة . لا . .

تتحدر . . تصرخ . . تصطخب . . تهزني . . تنقب أمامي . . تشل أقدامي عن الحركة . . تحجب السمع عني . . تخنق كلماتي . . تمتد داخل حنجرتي . . تكمم فمي . . تقذف بي في ثلج من الركود والتحجر . . في قاع صلد صخري باهت . .

وترحل إلي حيث لا أنا . .

يحتويني الملح وبقايا الشحوب ويوم استحضرت بقاياك انتصبت . . لا . . واحدة . . لا تغادر ذاكرتي . . تماوجت . . تمددت . . كبرت . . تكاثرت إلى سلسلة من اللاءات . . امتدت إلى ما لا نهاية .

حائل

دار الآداب تقدم

الدكتور أحمد علبي

طه حسين

رجل وفكر وعصر